

التصادم الثقافي وصراع الهويات في رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " لعمارة لخص

أ. سهيلة بريوة . جامعة جيجل/الجزائر

يشكل الصراع الأزلي بين الأنا والآخر العجلات الدائرة لتاريخ البشرية جمعاء، لما يضمنه من فرص اللقاء والتجدد بشق الوسائل مؤديا إلى امتزاج الثقافات والأعراق، وبرغم محاولات الشعوب الحفاظ على نقاء العرق وصفاء الثقافة ، إلا أن حتمية التغيير الناجمة عن معرفة الآخر ظلت تزعزع جيولوجيا المجتمعات وتبدل مصائرهما وأحيانا تلغي وجودها ، لذا اهتم علم الأنثروبولوجيا بهذه الظاهرة التي لا تقل أهمية عن حوادث الكون الكبرى لدراسة أحوال الامتزاج بين الشعوب وما يطرحه من تفاعل ثقافي واجتماعي عرف حديثا باسم المثاقفة أو الشاقف أو حوار الثقافات، وستتناول في مقالنا هذا بعضا من أوجه هذا الصدام الثقافي ، الذي عكسته رواية كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك ل عمارة لخص ، مبتدئين بمقاربة مفهوم الهوية.

- الهوية وأبعاد الأنا والآخر:

إن أول ما يتبادر إلى أذهاننا عند سماع هذه الكلمة "بطاقة التعريف الوطنية" التي يمتلكها أغلب الناس وتعرف بهم كمواطنين لدى الآخر في مراكز البريد والحواجر الأمنية ، بكل ما تتضمنه هذه البطاقة من اسم ولقب وعنوان وجنسية وتاريخ الميلاد واسم الأب وبعض العلامات الشخصية ، إضافة إلى بصمة الأصبع والصورة الشمسية ، وهي البطاقة التي تحمل رقما وثبت وجودي وعدم مطابقتي لأي شخص آخر مهما كان الشبه كبيرا. والسؤال المطروح، هل تختصر فعلا هذه البطاقة هوية شخص ما وتحددها؟.

بقليل من التمعن نجيب بـ "لا"، فالهوية أعمق وأوسع وأعقد، ظهرت كمفهوم ومبحث فلسفي منذ البدايات الأولى للفكر الإنساني، فأفلاطون يرى بأن هذا الكون هو مجرد تقليد للكون المثالي الأصدق، فالشجرة على الأرض هي تقليد ومحاكاة لفكرة الشجرة في عالم المثل وهكذا الأشياء كلها، أما أرسطو فجعل مبدأ الهوية أحد أسس المنطق الثلاثة (الثالث المرفوع، ومبدأ عدم التناقض)، وتلقف فلاسفة المسلمين هذه الآراء عن الهوية ولم يتعدوا كثيرا عنها، إذ وضع ابن سينا مفهوم التطابق على حسب استخدامه وجعل له ستة أشكال هي "المشاهدة (التطابق في الكيفية) المساواة (الكمية)، المجانسة (الجنس)، المشاكلة (النوع)، الموازنة (الأجزاء)، المطابقة (الأطراف)" (1) واستعملوا ألفاظا مرادفة للهوية، كالتماهي، الأنية، لذات النفس الماهية، ثم استخدمه علماء الكلام، إذ بحثوا في هوية الخالق من خلال القرآن الكريم وامتد المصطلح إلى الصوفية.

ولم يكرس فلاسفة المسلمين نظرية الاختلاف في الهوية، بل أبقوا على مفهوم المطابقة كانوا ذوي نزعة إنسانية توحدتهم فكرة الإسلام والعروبة (2) ويرجع السبب في هذا إلى روح الإسلام التي لا تفرق بين الأقوام والشعوب، كما أن العالم الإسلامي الذي كان مركبا من أقوام أخرى متباعدة الأعراق واللغات والثقافات، لم يكن لي طرح هذه النقطة التي تضعضع الدولة وتبث التفرقة.

أما في العصر الحديث، فيعد شلنج أول من أدرج مفهوم الهوية في كتابه (عرض مذهبي في الفلسفة) سنة 1801؛ ويكرس ضمنه فكرة الهوية المطلقة على أنها جوهر العقل وماهيته (3). وتلاه هيجل الذي وضع مفهوم الاختلاف في الهوية محققا بذلك هزة في تاريخ المفهوم

هذا عن الجانب الفلسفي الذي ظهر كما أسلفنا منذ القدم، لكن مفهوم الهوية كإشكال غاب عن ميادين العلوم الإنسانية الأخرى إلى أن نشر إريكسون إريك. هـ (4) Erikson Erik H كتابه الأول "الطفولة والمجتمع"

L'adolescence et Enfance et société سنة 1950، ثم كتاب L'adolescence et crise, La quête de l'identité سنة 1968، ويؤكد فيه أن مفهوم الهوية غير ثابت ولا تام (5). وأن للهوية جانبان اجتماعي ونفسي، فإذا كان للإحساس بالهوية وجه سيكولوجي داخلي، فإن له أيضا وجه اجتماعي خارجي (6)، يجسده كون الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، كما يربط وجود الهوية بإحساسنا، بما هذا الإحساس الذي يركز على مجموعة أحاسيس وفرضيات وهي:

- 1_ الشعور بوحدة الذات والشخصية.
- 2_ الشعور بالاستمرارية في الزمن.
- 3_ الشعور بالمشاركة الفعالة.
- 4_ الشعور بالاختلاف.
- 5_ الشعور بالثقة.
- 6_ الشعور بالاستقلالية.
- 7_ الشعور بحماية النفس.
- 8_ الشعور بالتطور مقارنة بالآخر.
- 9_ الشعور بالقيمة (تقدير الذات). (7)

ويركز إركسون على الجانبين النفسي والاجتماعي معا في بناء الهوية وإثبات تفردا وتعدد أوجهها، ويعد الشعور بالثقة في النفس وتقدير الذات مقومات أساسية لبناء هوية سليمة، كما تختلف الهوية حسب الدور الذي تلعبه داخل المجتمع.

وينحو أليكس مشيالي في كتابه "الهوية" L'identité الصادر سنة 1986 نحو إركسون في تعريفه للهوية مركزا على جانبيها النفسي والاجتماعي ويعرفها بكونها: "بمجموع الدلالات _وتختلف حسب ممثلي كل وضعية_ المفروضة من طرف أشخاص حول واقع فيزيائي وذاتي بأكثر أو أقل غموض حول عالمهم المعيش" (8)،

وبذا يمنحها الطابع التعددي الذي يختلف حسب الأشياء والأشخاص ودورهم في الحياة، فالهوية صبغة يصبغها الفرد على واقع ما أو فرد ما أو جماعة ما تجعلها مميزة عن واقع آخر أو فرد آخر أو جماعة أخرى، فهي على ما يرى تختلف مع كل فعل نقوم به، فعندما "أبجول في الشارع أكون متسكما كالآخرين، وعندما أدخل محلا ما أكون زبونا ...". (9) فهي غير ثابتة، كما أن الهوية التي أنقمتها ليست بالضرورة الهوية التي يصبغها عليّ الآخرون، فمثلا يعتبر الفلسطينيون أنفسهم مجاهدين ومقاومين ومدافعين عن وطنهم، بينما يعتبرهم الإسرائيليون والأمريكيون مجرمين وإرهابيين.

ويقر أليكس بأهمية الإحساس بالهوية الذي يفترض جملة من الأحاسيس التي وصفها قبلا إركسون، كالإحساس بوجوده الجسدي المادي والشعور بالانتماء والاستمرارية والاختلاف، والقيمة والاستقلالية والثقة والفعالية في المجتمع. (10) وهذه الأحاسيس تبرز أهمية الآخر في بناء مفهوم الهوية ابتداء من الأم التي تساعد الرضيع في التمييز بين أنه المادي وأنا الأم وباقي الموجودات وصولا إلى الشعور بالانتماء الذي يضمه وجودنا داخل جماعة والفعالية والثقة، فالآخر مهم في تكوين الهوية وهو ما يؤكد أليكس في قوله: "التواصل يفترض مشاركة مع الآخر الذي يشترط ظهور الآخر في الذات، وأن تتعرف الذات للآخر وأن ندرك ذاتنا بفضل الآخر" (11)، فهذا التداخل بين الأنا والآخر يحقق التوازن للأنا؛ التواصل مع الآخرين يشعر الفرد بالانتماء والطمأنينة ومن الفاعلية والحيوية، وبذلك يقدر وجوده ويشعر بالثقة. وكل هذه الأحاسيس المترابطة مهمة لتكوين هوية سليمة متزنة، وهنا نتأكد أهمية تداخل الجانبين النفسي والاجتماعي الذي ركز عليه ألكس في كتابه L'identité الهوية.

وتطرق الباحثة مارتين عبد الله برتساي Martine Abdellah

Pretceille إلى مشكلة الهوية في كتابها "نحو بيداغوجيا ما بين الثقافات" Vers une pédagogie interculturelle من خلال مقارنة جدلية الأنا مع

الآخر، وركزت على الجانب الاجتماعي، فهي تقر بأهمية الآخر في تكوين هويتنا لا من خلال مناقضته، وإنما يتطابق الآخر مع الأنا فيشكل محورا مهما سواء من خلال مكوناتها على الصعيد السيكولوجي أو من خلال تطبيقاتها على الصعيد الاجتماعي، وتحديدًا من خلال العلاقات بين المجموعات والأفراد (12)، فالآخر ليس الند الذي نصارعه ونعارضه ونحاول التفوق عليه، وقد يدحض عزائمنا ويفسد مخططاتنا، الآخر مهم لوجودنا النفسي والاجتماعي.

واعتبرت برتساي الآخر مرآة عاكسة نرى فيها دواتنا، فهو يبرز عيوبنا أو تفوقنا ومحاسننا هو مرآة ناقدة لوجودنا محفزة لنا على المضي قدما، لذلك فهو مهم في تكوين هوياتنا. وهذا ما يؤكد جيل فاربان Gilles Verbunt في قوله: "تكون صورة الذات شيئا فشيئا من خلال لعبة المرآة مع الغير (الغريبة) التي تعكس للفرد صورة تجعله يدرك تفرد (الهوية)، فالهوية لا تتكون دون غريبة" (13) فهذا الآخر يظهر تفوقنا أو عجزنا، شعورنا بالغيرة تجاه شخص ما يشحن عزيمتنا، وجود آخرين إلى جانبنا يشعرونا بالأمان لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه.

أما أمين معلوف فقد عرف الهوية في كتابه "الهويات القاتلة" Les identités meurtrières على أنها "كل ما يجعلني متميزا عن الآخرين، ولا يضعني بأي شكل في حال تطابق مع أي شخص آخر" (14)، فهي كل مركب تميز فرد ما عن أفراد آخرين غير قابلة في نظره للتجزئة، تساعد في بنائها عناصر ثقافية، وهي معقدة عميقة "إذ تتكون هوية كل شخص من مجموعة لا تنحصر بالتأكيد في الدفاتر الرسمية، فهناك بالطبع لغالبية الناس الانتماء إلى ديانة معينة إلى جنسية، إلى مجموعة إثنية أو لغوية، إلى عائلة صغيرة أو كبيرة..." (15)، كل هذه العناصر وأزيد تشكل هوية عصية عن التعريف، وإن كانت برتساي في كتابها نحو بيداغوجيا ما بين الثقافات تقدم نموذجا متكاملًا بين الأنا والآخر، وقبلها ألاكس ميشيالي واركسون إريك فإن أمين معلوف، يقدمها على أساس من التنافر والتنازع والاقتتال

إذ يقول: "كل المجازر التي حدثت في السنوات القليلة الماضية، كما أن غالبية النزاعات الدامية، راجعة إلى ملفات الهوية المعقدة والمعنة في القدم" (16) فهو يرى أن كل الصراعات في هذا العالم، هي في الحقيقة صراعات بين الهويات المختلفة (وهي النظرة نفسها التي تبناها هانتغتون في صدام الحضارات) سواء أكان دينيا أم لغويا أم ثقافيا.

لقد قدم أمين معلوف اللقاء بالآخر في صورة تقطر دما أحيانا، وفي مشهد من التهميش والرفض في حين آخر وهو مشهد المهجنين ثقافيا وجنسيا مجسدا في المهاجرين العرب في أنحاء العالم وصعوبة تحديد هوياتهم وانتماءاتهم، وهي تجربة الكاتب على كل حال سواء في معاناته من الصراع الدموي بين الأقليات في لبنان، أو إثر مهاجرته إلى فرنسا واستقراره هناك بعد التجنس بجنسيتها.

وإن كان إركسون وميشيالي قد دجا الواقعين النفسي والاجتماعي في تكوين الهوية وتعريفها، وإن كانت برتساي قد ركزت على دور الآخر في شحذها، ونادى معلوف بخطر الهويات على بعضها البعض واستحث آخرون في البحث عن مفهوم جامع مانع ثابت للهوية، فإننا نلاحظ من كل هذا أن كل دارس قد أعطى جانبا صادقا عن الهوية، وجه أو اثنين أو ثلاثة لتلك الجوهرة المتعددة الأوجه كما يصفها جيل فاربان، بينما تبقى النواة بعيدة، وبالفعل فالهوية أعمق وأعقد من أن تختصر في تعريف، لكنها الباب الرئيسي لولوج عالم الأنا والآخر واستكشاف خباياه، كما أن الجدل القائم بين الذاتية والغيرية يعد الباب الرئيسي لولوج عالم المثاقفة واستكشاف خباياه.

ويقودنا هذا المفهوم و محاولة تفتيت ظاهرة الصراع الثقافي أو الحضاري في رواية عمارة لخص، إلى البحث في حفریات الدراسات الثقافية التي حاولت دراسة هذه الظواهر الإنسانية تحت مسمى المثاقفة أو التفاعل الثقافي أو التداخل الثقافي مع الإشارة المهمة إلى وجود اختلافات كبيرة بين هذه المفاهيم.

يرجع الفضل في تفعيل مصطلح الميثاقفة إلى الأنثروبولوجيا الأمريكية، التي اهتمت بعلم الإنسان بفرض البحث في جذور الثقافة الإنسانية وكان فرانز بواز Franz Bouaz (1858_1942) من أوائل المؤسسين لهذه الدراسات في أمريكا إذ ركز على فكرتين أساسيتين: أولاهما تنفي وجود ثقافة أساسية هي أم كل الثقافات، والأخرى ترفض المنهج المقارن الذي يضع ثقافة الجنس الأرقى كمعيار لمدي التحضر والتوحش (17) ومهد هذا الاعتقاد لإعادة النظر في ثقافات الشعوب ودراساتها وكان للأنثروبولوجيين الأمريكيين الفضل في تفعيل الدراسات القائمة على معرفة حدود الامتزاج الثقافي و عد "الباحث الأمريكي ج. و. باول J.W.Powell أول من استعمل كلمة ثقاف (أو ميثاقفة) سنة 1880، عندما كان مهتما بدراسة التحولات التي تحدث في نمط الحياة والتفكير عند المهاجرين، عند اتصالهم بالمجتمع الأمريكي" (18)، باعتباره مجتمعا هجيناً قام على أنقاض المجتمع الهندي، لذا ركز هذا المفهوم (الميثاقفة) على تذويب الفروق العرقية والوصول إلى تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة (19)، و ربما جاء المفهوم نتيجة رغبة هذا المجتمع الذي بني وجوده على أشلاء مجتمع الهنود، أن يخلق لنفسه ولغيره صورة مزيفة قائمة على أسس التعايش السلمي.

1936 تم تكوين لجنة مختصة بالبحث في ظواهر الثقاف وكان من أعضائها روبرت ريد فيلد R. Red field و مليفيل هرزكوفيتس M. Herskowitz و رالف لينتون R. Linton (20) ، وكان لهذه اللجنة باع كبير في التعريف بظاهرة الميثاقفة، في المذكرات التي نشرت ولا تزال كمرجع في البحوث الخاصة بالميثاقفة.

وفي فرنسا كان روجي باستيد R. Bastide (1898_1974) أول من اهتم بتطوير الدراسات المتعلقة بالميثاقفة وذلك لاطلاعه المبكر على نتائج أبحاث علم الإنسان الأمريكي معتنيا في دراسته بوجه خاص بالعلاقة الوطيدة بين ما هو اجتماعي

وما هو ثقافي(21) ، ومع هذا لم يهمل دور الأفراد في عملية التثاقف يقول: "أبدا ليست هي الثقافات من تتعالتق وتتمازج وإنما هم الأفراد"(22).

ثم تلقف المفهوم دارسون كثر د. S. Abou س. أبو و C. Camilleri س. كاميري و G. Devereux ج. دفرو ... إلخ.

2.1.5.2- تعريف المثاقفة:

ورد تعريف المثاقفة في المذكرات التي نشرها الأنثروبولوجيون الأمريكيون سنة 1936 باعتبارها "بمجموع الظواهر الناتجة عن دخول مجموعة من الأفراد من ثقافات مختلفة في علاقات مستمرة ومباشرة، مع كل التغيرات التي تحدث في مكونات الثقافة الأصلية لأحدهما أو كليهما"⁽²³⁾ أي أن المثاقفة وصف للتغيرات الناجمة عن اللقاء بين مجموعتين بشريتين وليست وصفا لحالة التعالق في حد ذاته، الذي يشترط أن يكون فعليا ومستمرًا بامتداده زمنا ما ، يمكن الطرفين من معرفة البنى الثقافية لكل منهما ثم الانتقاء والأخذ ومن ثم يحدث التثاقف.

وهذا الحضور الفعلي- على زمان التعريف- كان يحدث إما عن طريق الحروب في المستعمرات، الاستيطان أو الهجرة أو التبشير الديني، ولا نغفل الجماعات البشرية التي تعيش على الحدود الوهمية بين بلد وآخر مثلا الحدود التونسية الجزائرية، قرية ساقية سيدي يوسف مثلا، أو مدن تبسة وجندوبة، إذ نلاحظ تمازجا في العادات والتقاليد بين التقاليد الجزائرية والتونسية وحتى في اللهجة، وهذا الامتزاج لا نلاحظه في مدن بعيدة عن تونس كالجزائر أو بجاية برغم تقارب ثقافتنا عموما من ثقافة التونسيين.

وإذا عدنا إلى علم الاجتماع وجدناه يفرق بين العلاقة (الاجتماعية)، وبين التفاعل الناجم عن هذه العلاقة، يقول "فؤاد بهي السيد" في كتابه علم النفس الاجتماعي: "عندما يلتقي فردان ويؤثر أحدهما في الآخر ويتأثر به وتكرر هذه الظاهرة وتستقر، فإننا نصطلح علميا على تسمية الصلة التي تجمع بين الفردين

بالعلاقات المتبادلة وتسمية التغير الذي يحدث نتيجة التبادل التأثير والتأثر بالفاعل "(24)، لذا فهناك من النقاد من يفضل التفاعل الثقافي على تسمية الثقافة. أما "روجي باستيد" الذي ينظر إلى التفاعل الثقافي من منظور اجتماعي، فهذا لا يمنعه من الأخذ بالاعتبار دور الفرد، وقد ميز بين نوعين من الثقافة.

1_ الثقافة المادية Matérielle: وتؤثر على عوامل محسوسة كنشر سمة ثقافية، تغيير طقوسي أو ترويج أسطورة ما.

2_ الثقافة الشكلية Formelle: وتعني ثقافة تمس الجانب النفسي وتؤثر على الإدراك المنطقي والعاطفي للأفراد وهو الأخطر (25).

وانتهج الدرب نفسه Sabou في تمييزه بين نوعي الثقافة؛ المادي الذي يراه غير مؤثر على طرق العيش وأنماط التفكير للشعب الواقع تحت تأثير الثقافة، والشكلي الذي يمس المنظومة الفكرية ويؤدي إلى خلق نمط تفكيري آخر يختلف عن النمط الأصل والنمط الوافد، ويختلف عن باستيد في نظره إلى الإدماج الذي يعتبره فشلا في الثقافة، أين يلغي الشعب المستقبل لثقافة الآخر هويته الأصلية ليستقبل ثقافة أخرى جديدة. (26)

غير أن الثقافة لا تحدث بمجرد لقاء شعبين لقاء مباشرا وفعليا، بل لابد من توافر شروط كما أنه هنالك تفاوتات في مستويات الثقافة، إذ أن:

1- العناصر المادية للثقافة أسهل تقبلا من العناصر الرمزية.

2- يحدث الاتصال المهد للثقافة عبر ثلاث عمليات متتالية تبدأ بالتعرف على

التعبير الظاهري ثم تنتقل إلى توظيف العناصر المستعارة وفي الأخير إعطاء دلالة جديدة للعناصر المستعارة.

3- كلما كانت العناصر المكونة للثقافة غريبة عن الثقافة المتلقية كلما كان التقبل أصعب.

4- تكون الأشكال أكثر قابلية للانتقال من الوظائف.

5- تتقبل الثقافة المتلقية (ب)، العناصر الثقافية في الثقافة (أ) إذا أخذت دلالة

متوافقة معها مهما كان شكلها ووظيفتها في الثقافة الأصلية.

6- يؤدي التطبيع* الأولي إلى ترسيخ الانتماء، بينما يترك التطبيع الثانوي هامشا

لتقبل ثقافة أخرى" (27)

إذن فالمثاقفة تكون في الأشكال المادية المحسوسة أكثر منها في المعنوية، إذ يدرك عامة الناس الأشياء المادية بوصفهم الفئة الأقل وعيا التي لا تدرك الجرد بقدر ما تدرك المحسوس، إضافة إلى كون الأشياء المادية الأسرع في الملاحظة ولا تحمل خلفيات إيديولوجية كالرموز ومن ثم لا تحمل أخطارا على ناقلها ويعرف الشايف تدرجا منطقيا ويتبدئ بمرحلة التعرف على الحالة الجديدة وبعدها التقليد وتأتي مرحلة الإضافة ، بما يوائم الثقافة المتلقية ، لتخرج الظاهرة بحلة جديدة.

وتنتقل الأشكال أكثر من الوظائف لارتباط هذه الأخيرة على الأغلب بحاجيات ومعتقدات واضعها وإيديولوجياتهم ولا تأخذها ثقافة أخرى إلا إذا توافقت ومصالحها، فاليوغا الصينية التي تعبر عن عبادة في البوذية، انتشرت في أرجاء العالم على أنها رياضة روحية، والرقص الهندي الذي يعبر في الديانة الهندوسية عن رموز دينية وأساطيرية، انتشر في العالم على صورة الفن الجميل وفتحت معاهد متخصصة في تعليمه عبر أرجاء العالم، ولم يراع في الأولى (اليوغا)، ولا في الثانية (الرقص الهندي) الوظيفة الدينية التي تؤديها في معتقد واضعها، بل انتشرت عبر العالم فيما يراه المتلقي من فائدة وجمال، إذ لا تتقبل الشعوب غالبا إلا ما يوافق مصالحها ولا تستخدمه إلا فيما يخدم معتقداتها.

تختلف المثاقفة التي تفترض علاقات متبادلة بين طرفين أو أكثر عن الغزو الثقافي الذي تمارسه ثقافة ما أو جماعة ما قصد بث آراءها وإيديولوجياتها في ثقافة أو جماعة أخرى مستعملة وسائل الإعلام كأحدث سبل، وعلينا أن نفرق أيضا بين الغزو الثقافي ذي الأهداف الإيديولوجية والانتشار الثقافي⁽²⁸⁾ الذي يكون نتيجة طبيعية لتطور وسائل الإعلام، فكل الشعوب تحاول التعريف بثقافتها دون أهداف إيديولوجية توجه لطمس معالم الآخر أو بث سموم التفسخ الخلقي مثل الذي يمارسه الإعلام اليهودي على المتلقي العربي.

التفاعل الثقافي و البحث عن الهوية :

يحملنا عنوان الرواية " كيف ترضع من الدببة دون أن تعضك " إلى التراث الشعبي الجزائري حيث يتواشج المعنى مع المثل الشعبي القائل " يرضع من اللبة " وهي اللبوة انثى الأسد و يصف هذا المثل الرجل الفطن الحذق الذي يصل إلى أهدافه برغم كل الصعوبات ، و إذا كان المثل يقترب من الثقافة الجزائرية فإن قراءة النص تفتح العنوان على دلالات كثيرة فرمز الدببة هنا الذي استبدل به " عمارة لخصوص " رمز اللبوة يحيل على روما ، و اسطورة اللقيطين رومل و روميلوس مؤسسا روما و الدين ارضعتهم دبة ، إذن إيطاليا هي الدببة الشرسة التي استطاعت الفطرة والصدفة أن تحيلها إلى مرضعة رؤوم تنقد رضيعين من الموت و تشيد سلالة من الشعب انتشرت بثقافتها و سلاحها عبر مناطق كثيرة ، الدببة هي إيطاليا الشرسة الموبوءة بالعنصرية و التهميش و التمييز التي تحتضن جماعات بشرية مختلفة و متناحرة و مع هذا يعلن عمارة أنه سوف ترضع من الدببة دون أن تعضه ، على لسان بطلة الذي رضع من ثقافة غيطاليا و لغتها حتى تماهى مع الايطاليين ، لكن راينا يقول بان الدببة التهمت احمد الجزائري ، و استلبت هويته الحقيقية .

حافظ عمارة لخصوص على حضور رمز الدببة في كامل النص ، بل و جعل هواية البطل أميديو المفضلة هي العواء ، و ينتهي كل قسم منها بعواء على امتداد

اجزائها العشرة ، التي عنوانها باسم الشخصيات التي تسكن إحدى العمارات في شارع فيتوريو بروما . وميزة هؤلاء السكان أنهم من جنسيات و طبقات و مستويات مختلفة فهناك المسلم و المسيحي و العربي و الإيراني و الإيطالي و البنغالي و المنقف والمنحرف و الجاهل .

و قد اختار عمار لخصوص حبكة بوليسية تبدأ بالبحث عن حقيقة مقتل الشاب الإيطالي " لورانزو مانفريدي " المكنى بالغلاباتور ، وذلك بمصعد العمارة ، وحول ضلوع أميديو في ذلك الجرم . بما أنه اختفى عن الأنظار و تبين أيضا بأنه ليس إيطاليا و إنما هو مهاجر ، مما استدعى تحقيقا مع سكان العمارة ، و معرفة رأيهم حول مقتل الشاب المنحرف و كذلك أميديو .

تبرز كلمة حقيقة بإشعاع ساطع في هذا النص من خلال العبارات الاستهلاكية التي أوردنا تم من خلال عناوين الأجزاء التي قسم بها لخصوص روايته . و نبدأ مع العبارات الاستهلاكية حيث اختار الروائي مقطعا من قصيد الجنوبي للشاعر " أمل دنقل " :

هل تريد قليلا من الصبر

لا...

فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون

الذي لم يكنه

يشتهي أن يلاقي اثنين :

الحقيقة و الأوجه الغائبة .(29)

نعم هو الجنوبي السندبادي المغامر و المقامر ، هو مواطن العالم الثالث المتخلف الذي يبحث له عن وجود لم يعيشه ، يبحث عن هويته مزقها الجهل و الاحتقار بلا صبر و لا هواة ، الجنوبي الذي يشتهي كشف الحقائق المخبوءة وينبهر بصورته على سطح البئر فينتهي نهاية نرسييس العاشق لصورته ، الجنوبي الذي يحمل معه أثقال

الثقافة الجائرة القاهرة للحلم و الأمل مند الطفولة المبكرة ،والتي تطارده كوابيسا مزعجة و هو بين أحضان العالم المتحضر ، ألم يقل الطاهر جاوروت (ضحية التصلب الفكري) "الناس السعداء ليس لهم عمر و لا ذاكرة ، فهم لا يحتاجون إلى الماضي " ألا يفرض النص ببطله المنسلخ ذلك الماضي المملوء دما و إرهابا مند لحظة الولادة والختان و الزواج ، ألا يربط عمار لخص في نصه الخطير بين فقدان الحقيقة (الهوية) و فقدان الذكورة ،ألا يعالج هذا النص قضية الذات العربية الواهمة الخاضعة لصورة التخنت الذي فرضه نموذج الطاغية بكل أشكاله حتى يتمهى أحمد الذكر مع شهرزاد الأنثى ، يفر أحمد الجزائري إلى أحضان الدبة مثلما غامرت شهرزاد بعمرها في حضن المعتوه شهريار ، هل الجنوب كله حكايات لألف ليلة و ليلة ، وكل ليلة تنتهي بالإرهاب و القتل و الضياع ، "هل أنا شهرزاد؟ هي تحكي و أنا أعوي بلا ملل. كلانا يفر من الموت و يلفنا غطاء الليل. هل هناك فائدة ترجى من القص ؟آه من الذاكرة الملعونة .الذاكرة صخرة سيزيف اللعينة. من أنا ؟ أحمد أم أميديو ؟ آه يا بحجة هل من سعادة بعيدا عن ابتسامتك (30) هل أن عشية الإرهاب الدامية أصلت لذاكرة الموت المتأصلة في الجنوبي ، هل يعادل زمن الذاكرة في نفس أحمد الجزائري الجلوس على مقعد المرحاض و ممارسة النوستالجيا في أنجس مكان يليق بذاكرته النجسة المليئة بالكوابيس التي تنغص سعادة اميديو الإيطالي مع ستيفانيا الايطالية الجميلة .

اختلاف الهويات ، وصدام الثقافات :

ويتكرر هذا التصنيف الجائر في الرواية (جنوب شمال) فالجنوبي أيا كان لونه أو شكله أو جنسه هو متخلف و بربري ، و إن كان إيطاليا ويسكن روما ، لأن عمار لخص و بإتقان شديد استطاع أن يتناول مفهوم صراع الهويات في جميع مستوياته حتى بين أبناء الوطن الواحد و الديانة الواحدة مثلما حدث مع أحمد و عبد الله أو بين الأستاذ الجامعي "أنطونيو ماريني " و بقية سكان روما حيث يفتخر بكونه

من ميلانو و يصف الجنوبيين بأنهم كسالى و غير متحضرين " أليست الذئبة هي رمز روما . أنا لا أثق أبدا في أبناء الذئبة ، لأنهم حيوانات مفترسة متوحشة. أن الحيلة الخبيثة هي و سيلتهم المفضلة في استغلال عرق الآخرين . هكذا أهل الشمال يعملون و ينتجون و يدفعون الضرائب ، و أهل الجنوب يستغلون هذه الأموال في إنشاء العصابات الإجرامية حان الوقت للاعتراف أن الوحدة الإيطالية خطأ تاريخي لا يغتفر "(31).

و نلاحظ من هذا الكلام أن الصراع يمتد إلى الهويات الضيقة بين الايطاليين أنفسهم ، فساكن الشمال يحتقرون ساكن الجنوب و يعتبرونهم متخلفين بينما يحمل ساكن الجنوب النظرة نفسها على ساكن الشمال .

ثم يبرز الصراع الأساسي في هذا النص بين الايطاليين و المهاجرين من جنسيات مختلفة حيث يبرز الوجه الراض للفقرة الكبيرة التي تشكل المجتمع بداية من البوابة بندتا التي لا تكف عن إصاق جميع التهم الفظيعة بالمهاجرين .

التفوق على الذات و فشل الشايف :

قدم عمارة لخص في هذه الرواية نماذج عن العنصريين الإيطاليين المتفوقين في هوياتهم الضيقة ، و الراضين لكل من هو مختلف و غريب ، و إن كان من إيطاليا نفسها ، و حضرت البوابة بندتا رمزا لهذا القهر الثقافي و الحضاري الذي تمارسه على المهاجرين ب أشنع الطرق ، بداية من إجحافها في تمييز الجنسيات الحقيقية للسكان ، فهي تصف بارويز بالغجري أحيانا و الألباني في أحيان أخرى و تعتقد جازمة بأنه يتاجر في المخدرات تحت ذريعة إطعام الحمام ، و تنصح أميديو بعدم التعامل معه ، و تمنعه من استخدام المصعد ، كما تحقد بندتا على ماريا كريستينا و تسبى معاملتها و تمنعها من استخدام المصعد لأنها ثقيلة الوزن ، و تمنع في إذلالها لأنها لا تملك وثائق الإقامة ، و تحسد البنغالي أمير الله لأنه امتلك متجرا و سيارة نقل في ظرف وجيز و تتهمة بالالتجار في المخدرات و الدعارة . كما ترى أن المهاجرين

كلهم مجرمون ، و أنهم يتسببون في بظالة أبناء إيطاليا لذلك فهي تقول دوما " يجب طرد العمال المهاجرين، وتعويضهم بأبنائنا المساكين" (32)

كما أمعن الغلادياتور " القنيل " في إذلال المهاجرين ، فهو لم يكف عن اغتصاب ماريا كريستينا لأنها لا تملك وثائق الإقامة فلا تستطيع أن تشتكيه ، كما أنه يهين كل المهاجرين و يصرخ في وجوههم إيطاليا للإيطاليين.

ولا يقتصر الأمر على محدودتي الثقافة و الشواذ فحتى الأستاذ الجامعي " انطونيو ماريني يرفض وجود المهاجرين و لا ثق بهم ، و كذلك إلزابيتا فاياني التي اهتمت الصينيين باختطاف كلبها فالنتينو و طبخه ، و هي ترى أنه على إيطاليا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الصين ، و أن يشن الايطاليون حربا _على الصين لأنهم تجرؤوا و طبخوا كلبها فالنتينو ، وأنه علة إيطاليا استبدال المهاجرين بالكلاب المدربة .

و أمام هذا الرفض القاطع و الجو المتوتر في مجتمع يرفض الآخر و يرفض كل من يختلف عنه يستحيل التعايش نوعا من المجازفة و دربا من المستحيل ، و يمعن السكان الأصليون لروما في إذلال المهاجرين ، و يمعن هؤلاء في الانزواء و التفوق ، و خير نموذج على هذا شخصية بارويز صمدي الإيراني الذي وجد نفسه فارا إلى إيطاليا بعد أن تهدده الموت من طرف حراس الثورة في إيران ، و يثبت هذا الموقف في حد ذاته عمق الصراع البشري حتى بين أبناء الوطن و الدين و التاريخ المشترك .

تعد شخصية بارويز نموذجا للفشل في التفاعل الثقافي مع الإيطاليين و ثقافتهم ، و يرجع هذا إلى تمسكه المفرط بهويته الأصلية كإيراني ن إضافة إلى قرفه من مظاهر الثقافة الإيطالية ، فهو يكره أكل البيتزا و العجائن ، و هي من مقومات الثقافة الإيطالية و يرفض تعلم الطبخ الإيطالي و يفضل التمسك بالطبخ الإيراني على الرغم من أن هذا لن يساعده في كسب القوت ، و صر في كل مرة يطرد فيها من العمل أن السبب الرئيسي هو اكتشاف الإيطاليين بأنه يكره البيتزا على الرغم من أن السبب الحقيقي هو عدم إتقانه للغة الإيطالية التي تحرمه من التواصل .

وقد أدخله هذا التوقع في مطبخ إيران و ذكريات مدينته شيراز و زوجته وأبنائه، التوقع على تلك الهوية المغلقة التي أجبر على الابتعاد عنها ، فكان في تخبطه بين برائن الذئبة إيطاليا يشبه السمكة التي تخرج من البحر .

و قد أدخله ذلك التوقع في مشاكل مع سكان العمارة فبندتا تظن أن برويز الغجري يشتمها في كل مرة يقول لها فيها كلمة مرسي بالفرنسية تعبيرا عن شكره ، و الشرطة تلاحقه في كل مرة لأنها ترتاب حول هوسه الكبير بإطعام الحمام في ساحة ساننا ماريا ماجوري ، و كذلك رفض السلطات الإيطالية لطلبه في اللجوء السياسي و اتهامه بالكذب مما اضطره إلى إخطاة فمه تعبيرا عن القهر الذي يتعرض له في بلد يدعي الحرية.

و منه فإن الإمعان في الريبة و الشك اتجاه الآخر يقطع سبل الحوار و الشاقف ، لذلك نرى أن النماذج المغلقة على ذاتها تفشل في التواصل مع الآخر المختلف مثلما حدث مع برويز الذي يرتاب في أمره كل سكان العمارة و لا يقدرّون ظروفه الصعبة و كذلك البوابة التي تمنع في إذلال المهاجرين .

الانفتاح على الآخر بين الشاقف و الاستلاب الثقافي :

ظلت حقيقة أميديو أو هويته غامضة عند كل سكان العمارة ، إذ ظنوا انه إيطالي حقيقي لأنه يتقن الإيطالية و لأنه مثقف وهو غير عنصري مثل باقي الإيطاليين فهو يتسم في وجه المهاجرين و العنصري لا يتسم مثلما يرى البنغالي إقبال أمير الله .

و قد عرفنا مع نهاية النص و بطريقة بوليسية مشوقة أن أميديو هو أحمد ، و هو جزائري و مسلم ، تقول ستيفانيا زوجته الإيطالية " من هو اميديو الحقيقي ؟ يا له من سؤال غريب . لا يوجد أميديو حقيقي و أميديو مزيف . هناك أميديو واحد فقط ، أميديو المدهش الذي عشقني و عشقته....لقد ضحى أميديو بكل شيء من أجلي ، إذ تنازل عن وطنه و لغته و ثقافته و اسمه و ذاكرته. أراد أميديو إسعادي بأي ثمن

تعلم الإيطالية من أجلي و أحب الطبخ الإيطالي من أجلي و سمي نفسه أميديو من أجلي . باختصار صار إيطاليا لإسعادي (33).

لقد تخلّى أحمد الجزائري عن ثقافته العربية حينما هرب بجرحه الذي ظل يترقب إثر مقتل حبيبته " بهجة " على يد الإرهابيين في الجزائر ، بهجة التي تمثل الوطن الذي نضع بالدم و الموت في العشرية السوداء ، الوطن الذي تعوي فيه ذئاب الفتنة وتنهش أشلاء الذاكرة و تلاحق أميديو الجديد في كوابيس عنيدة تذكره بالجرح الذي لا يندمل .

تخلّى أحمد عن اسمه العربي ، ألا يعتقد جازما أن تغيير الاسم يغير من أحول الشخص و نفسيته ، لقد أبعد الوطن و الذاكرة عن حياته ، و اختار المرحاض مكانا مناسباً يستعيد فيه طقوس الغربة و الماض المريب .

عشق أحمد إيطاليا الذئبة الشرسة ، و رضع من حليبها ، من ثقافتها من حضارتها و تزوج أحمد إيطاليا ، استبدل أحمد صياح الديك بعواء الذئب ، و على الرغم من إعلانه في نهاية النص عن تمسكه بمظاهر ثقافته الجزائرية و الإسلامية إلا أننا نرى أن عمارة لخصوص يريد إثبات أن أحمد الجزائري وقع في فخ الاستلاب الثقافي ، لأن الهوية ومظاهرها هي من خصوصيات الإنسان اللصيقة به فلا يمكننا ممارستها في الخفاء ، أو في الحمام مثلما يفعل أميديو ، و إن كان عمارة لخصوص يلح إلى أن السبيل الوحيد للاندماج في العالم المتقدم الذي يدعي التحضر هو أن تخفي حقيقة هويتك عن الآخرين .

و خلاصه هو أن هذه الرواية الملغزة تفتح على قراءات متشعبة ، وتتواشج بشكل كبير مع كتاب أمين معلوف " الهويات القاتلة " ، إذ نعتز في زوايا النص وشخصياته على كلام أمين معلوف و على مظاهر من ليون الإفريقي المهجين .

وقفت الرواية على حقيقة المهاجرين و على حقيقة الصراح الحضاري في عمارة " فنوريو " هو عنوان الرواية باللغة الإيطالية " صدام الحضارات من أجل مصعد "

فهل يمثل المصعد الزمن البشري الذي تتناحر فيه القيم و الثقافات و تتحقق نبوءة هانتنغتون ؟.....

الهوامش:

1- رسول محمد رسول، محنة الهوية، مسارات البناء وتحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1 2002، ص: 20.

2- المرجع نفسه ، ص : 24.

3- المرجع نفسه، ص: 29.

4- Alex Mucchielli, L'identité. Que Sais je. 2003, p 6

5- Martine Abdellah, Pretceille vers une pédagogie interculturelle publication de Sorbonne, 2^{eme} édition 1990.

Alex Mucchie

Ibid; p; 26. -6

Ibid, p 12. -7

Ibid, p 22. -8

Ibid, p 67. -9

Ibid, p48-10

Martine Abdellah, Pretceille, op, cite, p 48-11

12- Gilles Verbunt, La société interculturelle vivre la diversité humaine, seuil, p 67

13- Amine Maalouf, Les identités meurtrières, dition grasset à fasquelle ;France 1998 p 18.

Ibid, p 19.-14

Ibid p 46.-15

16- محمد العربي ولد خليفة. المسألة الثقافية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2003، ص: 46.

- 17- المرجع نفسه، ص: 56.
- 18- مسألة مفهوم المثاقفة، ، تحليل السعدني المغرب. مجلة فكر ونقد، العدد العاشر، دار النشر المغربية ص: 35،
- 19- محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية، ص: 56.
- Martine Abdellah, Pretceille, op, cite, p 55-20
- Ibid, P 5 .-21
- Martine Abdellah, Pretceille, op, cite, p 55-22
- 23- فؤاد هي السيد، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، ط: 2، 1980، 1981، ص: 601
- Martine Abdellah Pretceille op ;cit, P 56.-24
- Ibid, P 59-60.-25
- ⁽¹⁾ ويقصد بالتطبيع كل ما يرثه الفرد عن مجتمعه من عادات وتقاليد وقيم وأخلاق ودين والتطبيع الأولي ما يتلقاه الفرد وهو صغيراً أما الثانوي فيحدث عندما يكون الفرد قادراً على مخالطة الآخرين والأخذ عنهم. نقلاً عن محمد العربي ولد خليفة مرجع سابق ص: 59.
- 26- محمد العربي ولد خليفة، مرجع سابق، ص: 59.
- 27- عمارة لخص. كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك منشورات الاختلاف الجزائر، ط. 2006، ص 6.
- 28- المرجع نفسه ص. 150
- 29- المرجع نفسه ص. 85.
- 30- المرجع نفسه ص. 38.
- 31- المرجع نفسه ص. 117.